

الفصل الرابع

البربر في العصر الإسلامي

البربر منتشرون في النصف الشمالي من قارة افريقيا ويتوزعون على الترتيب التالي:

1 - البربر في مصر:

عندما خرج البربر من جزيرة العرب استوطنوا مصر أولاً. ثم استوطنوا الممرقية، وهي منطقة الحدود المصرية الليبية، وفي عهد الفاطميين انتقل كثير من كتامة، وهو جند الدولة الفاطمية الفاخون، ومصمودة وصنهاجة إلى مصر فاندمجوا في الشعب المصري وعلاوة عن البربر المندمجين في الشعب توجد في شمال مصر قرية بربرية بحتة تسمى سيوة أو واحة عمون، ومازال أهلها إلى الآن يتكلمون لهجة بربرية بحتة ولهم عادات بربرية واضحة.

2 - البربر في ليبيا:

ليبيا هي الموطن الثاني للبربر وهي التي نشأ فيها بربر لوبو الأولون الذين نسبت إليهم البلاد "لوبيا" وهي بخاصة موطن هواره القبيلة البربرية الكبرى، وفي العهد الروماني أُنجبت سياسيين كباراً أو علماء عظاماً، أمثال الإمبراطور سبتيموس

سافاروس. وفي العصر الإسلامي قام البربر بدور أساسي في فتح افريقية، ثم انقلب معظمهم إلى الإباضية وصاروا تابعين لدولة بني رستم بالجزائر لاسيما بربر جبل نفوسة. وفي عهد صنهاجة في القرن الخامس الهجري قامت بطرابلس دولة بني خزوان البربرية.

وينقسم بربر ليبيا اليوم إلى ثلاثة أقسام:

أ - بربر برقة:

وهم قليلو العدد بالمقارنة إلى العرب ومنهم البربر الخاص وأشهرهم سكان اوجيلة وهم مازالوا يتكلمون البربرية، ومنهم البربر المتربعون أمثال سكان جالو والزاوية والفواتر وغيرهم.

ب- بربر الجهات الغربية الصحراوية:

وغالبيتهم من السمر والسودان وأشهرهم أهل فزان وهم قدماء معروفون ومنهم الطوارق من الأبريين والاماشاق والتاماهوق الذين هم منحدرين من بربر تاماهو الذين ورد ذكرهم في المعالم الفرعونية المصرية الراجعة إلى الأسرة الثامنة عشر ثم قبائل التبو التي هي زجوية بربرية وهي خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري.

ت- بربر الجهات الشمالية:

وأغلبهم سكان جبل نفوسه بنالوت وجادو وسيناون، يبدأ الخط من غدامس شمالا وغات جنوبا ويستمر مشرقا بين الجبال إلى أن ينتهي إلى زوارة على البحر. وكل هذه الجهات بربرية اللغة

وفيهما آداب بربرية كثيرة وكتب في الإباضية وطبقات العلماء يحتفظون بها. وقد حاول الإيطاليون أن يلعبوا الورقة البربرية ضد العرب والكوارغلية والأتراك، ولكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح، فقد وجدوا أمامهم أمة متحدة كالبنبان المرصوص واللغة البربرية في الجبل في تناقض بسبب انتشار التعليم الابتدائي.

3 - البربر في تونس:

إذا استثنينا متبقيات البونقيين الباقية في استنار في بعض واحات الجنوب الشرقي، وبعض متبقيات الرومانيين المندمجين في السكان، والجالية التركية الضاربة بثغور الشواطئ التونسية فإن قرارة الشعب التونسي مترتبة من بربر وعرب على نسبة أصلية بربرية من 27 هـ إلى 444 هـ ثم على نسبة ثلثين من البربر وثلث من العرب بعد سنة 444 حينما زحف بنو هلال وبنو سليم على تونس فحفظوها دما عربيا فتيا جديدا، ثم على نسبة تساوي أو قريب من التساوي حينما تعربت أكثرية القبائل البربرية، فالنتيجة الآن هي أن الشعب التونسي يتركب في معظمه مما يأتي:

أ- عناصر عربية أولى من قبائل الفتح تسكن المدن على الخصوص- وبخاصة القيروان- أو جهات ما تزال تحمل اسم القبائل العربية الأولى مثل قضاة قرب باحة وبرهة الكاف والقرشيين في الوطن القبلي، والأنصاريين قريبة طبرية، الكلبيين قرب عين الغلال والأرديين قرب قنطرة بنزرت، ولكن هذه الجوالي العربية

الأولى مندمجة في المجتمع غير متميزة.

ب- عناصر قبائلية من هلال وسليم ماتزال موسومة بالصفات القبلية تعيش عيشتها في نظام العروش في جهات بعينها مثل بني زيد والهمامة والثالث ودريد ورياح.

ت- عناصر بربرية أصلية قد تعربت وزالت عنها غالب الصفات البربرية مثل أولاد عيار وماجر وأولاد عون.

ث- بربر مسلمون خالصون مخلصون عرب في لغتهم أو مشاركون في لغاتهم بين العربية والبربرية مثل وشتاتة وخمير ونفرة مقعد في الشمال، وورتيان والفرانشيشي في الجهات الغربية وورغمة وغمراسن ومطماطة في الجهات الجنوبية الشرقية.

والذي نلاحظه هو أن البربر يسكنون في الغالب الجهات المنقطعة من جبال وصحاري وجزر لتوالي الغزوات على بلادهم من بونيقين ورومان ووندال وبيزنطيين وعرب وأسبان وترك وفرنسيين وإيطاليين فتدحرهم الأمم الغازية إلى الجهات المنقطعة وهي:

1 - الجزر:

مثل قرقرنة وجربة بالإضافة إلى تونس الحالية: ومالطة وصقلية وسردانية بالإضافة إلى تونس الكبرى فيما سلف، وما تزال بجربة أسماء القبائل البربرية الكبرى مثل الماي أي لماية، وسدويكش ومستارة وأراكو كما ان مالطة منسوبة إلى عائلة مليتة البربرية الكبرى التي جُد بقاياها في مليتة فقرقرنة وثلة مليتة بالشمال الغربي التونسي.

2 - الأنهار:

غالب الأنهار التونسية تنسب إلى قبائل بربرية موجودة أو مندثرة مثل مجردة وناسة وسليانة وفوشانة ووزارة ومعظم هذه الأسماء من القبائل التي أوردها ابن خلدون.

3 - الجبال:

مثل وشتاتة وخمير ومقعد ورتنات ورسلات ومطماطة.

وأهل الجبال يسكنون الأكوخ المغطاة بالمقاصب المتوارية في كثيف الغابات بجهات خمير، والقرى العالية الموضوعة كعشوش النسور في قمم الجبال وتسمى القصور في الجهات الجبلية الشمالية الأخرى مثل إقليم مقعد وإقليم زغوان، ويسكنون الغرف المنقورة في الصخر في الجنوب الجبلي التونسي.

4 - الواحات:

في الجنوب في الجهات المنبسطة مثل الزارات وتامزرت وتستمر هكذا إلى مدينة غدامس نفسها.

5 - المدن:

والبربر في المدن يؤلفون جاليات متميزة بالسكنى في حارات بعينها، وبالصناعات في مهن بعينها وباللباس في أزياء بعينها، وفي اللغات في لهجات بعينها عربية أو بربرية والجريون والدويرات وتامزرت والميزابيون والوارقلية لهم أحياء بعينها أو أنهاج بعينها وأسواق بعينها أو وكلايت سكنى بعينها والجريون يتعاطون التجارة في أقلام معينة ودكاكين معينة وفي أسواق

معينة حسب تقاليد بعينها وإن كان سير الاقتصاد اليوم قد دفعهم إلى استقلال وتختر متزايدين والدويريات يتعاطون في الغالب الخياطة والحماله وبيع البقول والثمار هذه الطبقات من البربر بأزيائهم ولهجاتهم العربية والبربرية. غير أن سير العلم والاجتماع قد اخذ يكسر إطارهم الأصلي فنجد البعض منهم يسكن القصور الشامخة وقد ارتقى العلم بعناصر منهم فتكاثر من بينهم المحامون والأطباء والصيدالة والمهندسون والأساتذة ورجال الصحافة والسياسة والعلماء والكتاب والشعراء.

العادات والعقائد:

وللبربر التونسيين عادات وعقائد موروث أخذت تزول على مر الدهور كما أن اللهجات البربرية قد ماتت في جهات كثيرة مثل خمير والوطن القبلي وهي في تناقض ولم تبق إلا بالسند وتامرت وجهات من جربة مع كثرة امتزاجها بالمفردات العربية وقد تعرب البربر وصاروا من زعماء الإسلام وأنصار الآداب العربية فزالَت القضية البربرية من تونس منذ قديم.

الدولة البربرية بتونس:

يظهر أن يوغورطه اتخذ عاصمته قرطبة التي هي الكاف لا قرطبة التي هي قسنطينة على أن سيفاكس اتخذ من الجنوب الشرقي التونسي مملكة جعل عاصمتها صفاقس المنسوبة إليه أو بالأحرى بلدة طينة التي لا تبعد عنها إلا قليلا. وفي عصر الاحتلال الروماني ولي عدد من بربر ليبيا (سبتيموس سافاروس)

ومن بربر تونس (آل غوردانوس وغيرهم) الإمبراطورية الرومانية، وغوردانوس هو الذي بنى قصر الجم (تيسدروس) إكراما لأهل بلدته الذين انتخبوه إمبراطورا على الرومان.

وفي العصر العربي شارك البربر منذ الأول في الفتوحات الإسلامية، ورموا بسهم مصيب في الدولة الأغلبية وقامت دولة الفاطميين على كاهل كتامة، ثم استقلت صنهاجة بالحكم (361-555) وقامت بعدها الدولة الحفصية التي سمت إلى مقام الخلافة وباعها أهل الجزائر والأندلس والسودان والحجاز.

ومع أن بلاط الفاطميين والصنهاجيين والحفصيين كان يستعمل البربرية فإن غالب الملوك الصنهاجيين والحفصيين كانوا من خطباء العربية وشعرائها.

ويظهر أن المشادات العنيفة بين الولاة والقبائل البربرية العظمى وهجرم الأعراب سنة 444 قد فتتت القبائل البربرية التونسية فانتشرت في البلاد شذرا وزادت تعربا بالنهاية والتحمت العناصر القومية فكونت شعبا متزجا عربي النزعة إسلامي الدين عربي الثقافة.

4 - البربر في الجزائر:

لعل مكان التقاء البربر الواردين من شمال أوروبا والبربر الواردين من اليمن عن طريق مصر وليبيا هو وادي شلف الذي يقسم الجزائر نصفين غربي وشرقي وهو ميدان التنارع الكبير على طول الدهر بين مضمودة الغربية وصنهاجة الشرقية. ولعل

الجزائر أيضا هي محل التقاء البربر الليبيين الشماليين والبربر الصحراويين المتمزجين بالزنوج. فنحن نشاهد بالجزائر طبقات مختلفة من البربر تنقسم إلى الأقسام التالية :

أ- بربر الشمال :

بالجهات الشمالية الواقعة على طول الساحل من القالة شرقا إلى أرزاو غربا. من جبال وشتاتة وادوغ المجرجة والونشريس. وغالبهم من كتامة في بلاد القبائل الصغرى. وزاوة الشمالية الغربية. ويعلم الناس جميعا ماذا كان دور بني يفرن في المنازعات بين دول المغرب ودول الأندلس. ودور كتامة في مناصرة بني عبيد الفاطميين المنازعين للاغالبة في القرن الثالث. وقد استطاع هؤلاء البربر الشماليون ان يبنوا دولة كبرى في القرن الثالث ثم الثاني ق.م. فاسس يوبا الأول ثم يوبا الثاني الكاتب العالم الأديب المتأثر بالحضارة اليونانية دولة موريطانيا القيصرية بمدينة شرشال قرب عاصمة الجزائر اليوم.

كما استطاع سيفاكس أن يبني دولة كبرى بنوميديا جعلها إمبراطورية عظمية.

وفي أوائل القرن الخامس الهجري انفصل فرع من الصنهاجيين القائمين بالمهدية. فاسس دولة بني حماد الزيرية الصنهاجية في قلعة بني حماد أولا. ثم في بجاية ثانيا كان لها شأن سياسي وعلمي وثقافي واقتصادي وفني عظيم. وفي القرن السابع الهجري أسس الزبانيون من بني عبد الوادي البربريين الدولة الزبانية العبدوادية بتلمسان فكانت من أكبر

دول الإسلام شرقا وغربا ودامت إلى الاحتلال التركي في القرن العاشر.

ب- بربر النجاد العليا:

هم البربر المتحررون الذين اقلقوا راحة الفينيقيين. وأوقفوا فتوحات الرومان فبنوا ضدهم سلسلة من الحصون سموها ليمس أي الحد. وخصوصا بربر جبل الأوراس الذين هم شديدي المراس. واضطر الرومان لكي يهنأ لهم بال بالبلاد التونسية أن يتخذوا بحيدة معسكرا رابط فيه الفيلق الثالث الأوغسطي. ثم يتوالى فتوحاتهم نقلوه بالنهاية إلى لبيز. وعلم الاغالبة في القرن الثالث الهجري أن "مر" تبسة بين الجبال فح يتسرب منه البربر المهاجمون للقيروان فأسسوا معسكرا ببلزمة وضعوا فيه خمسة آلاف من الفرسان القيسيين من العرب بخيولهم العربية. ليكونوا لهم درعة. حتى إذا ما ستصفي زيادة الله الثالث آخر ملوك الاغالبة تلك الفيالق القيسية خلا الجو لبربر كتامة العاملين لحساب الفاطميين فانتصروا على الاغالبة وقضوا على دولتهم.

وغالب بربر النجاد العليا من قبيلة ورقجومة وأكثرهم من الخوارج الذين نازعوا العرب الحكم بعد دخولهم في الإسلام. وطالما استولوا على القيروان واقلقوا بال الولاة إلى أن أسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية. فاسس بنو رستم الدولة الرستمية في مدينة تاهرت بالجزائر وهي أول دولة بربرية بحتة قامت في الإسلام وكان لها شأن عظيم وأخبارها مشهورة.

ت- بربر التخوم الصحراوية:

ومنهم البيض والسممر والوسد، يعيشون في الواحات عيشة قرار ويتصلون بالسودان من ناحية وبالسواحل من ناحية أخرى على وجه الهجرة للعمل أو الترحال لتسيير القوافل التجارية فهم خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري، وهم المنظمون للقوافل الصحراوية البحرية منذ عهد الفينيقيين فيتصلون ببرقة وطرابلس شرقا، وبالجزائر وهران شمالا، ويؤسسون مشابك واحاتهم على العيون أو الأودية الظاهرة أو النقارات التي يحفرونها على العرق الكبير ذلك النهر الباطني العظيم الذي يخترق جنوب الجزائر، وأهم مشابك واحاتهم: وادي سوف ووادي ريغ ووادي ميزاب وورقلة (ورجلان)، وقد ألفوا هناك منذ أقدم العصور دويلات مختلفة الشأن لاسيما بعد أن قضى العبيديون على دولة الرستميين، ومن أهم دويلاتهم دويلة بني جلاب بتقرت وغالب مدنها عواصم للآداب الاباضية بالبربرية أو بالعربية فقد أُنبت ورقلة (ورجلان) علماء كثيرين كما أُجبت ميزاب علماء يشار إليهم بالبنان أشهرهم الشيخ اطفيش رحمه الله، ويمتاز الميزابيون بالمشاركة بين النشاط العلمي والنشاط التجاري في دائرة كبرى من عمان إلى زنجبار إلى مصر إلى أقصى المغرب.

ث- بربر الصحراء

ينتهون إلى بحيرة تشاد ونهر السينغال جنوبا ويرتفعون شمالا في صميم البلاد الجزائرية إلا الهكار وعاصمته قانراست

عاصمة الطوارق الملتئمين أسود الصحراء، وقبائل توات بعين صالح وقبائل الفجيخ وغالبهم يتبعون طرقا معينة أشهرها التجانية وزاويتها الأم بعين ماضي ولهم مدارس وديار كتب وعلم إسلامي منتشر وهم حفظة الدين وناشروه بالصحراء، وبربر الجزائر يشعرون بأنهم عرب عاربة من اليمن ويعتصمون بالإسلام كل الاعتصام ويتمسكون بالعروبة كل التمسك، وامقت شيء لديهم أن ينسبوا إلى البربرية، وقد بنوا بالجزائر دولا إسلامية كبرى أولها دولة بني رستم بطاهرت التي عاصرت الأغالبة في شرق المغرب والأدراسة في غربه؛ ثم دولة بني حماد بقلعة بني حماد أولا وبجاية بعد ذلك، ثم دولة بني زياد أو بني عبد الوادي بمدينة تلمسان وكانت معاصرة للحفصيين.

ومائة وثلاثون عاما من الاحتلال الأجنبي لم تقتل العربية ولا الإسلام ولا حادت بالبربر عن شعورهم الإسلامي وجامعتهم العربية، بل إن أكثر المناصرين للدين واللغة أو من أكثرهم على الأقل هم البربر، وقد انتشرت في صميم بلادهم مدارس جمعية العلماء الفاضلة فلاقت نجاحا مدهشا وصار البربري الصغير يتكلم الفصحى ببلاغة ولا يعرف الدارجة، وفضل جمعية العلماء في هذا الباب لا ينكر بل يذكر فيشكر، وإذا ذكر المؤرخون في يوم غد مزايا الجمعيات الإسلامية مشرقا ومغربا كان فضلها في المقدمة وكتبت لها البطولة في هذا الميدان.

واللغة البربرية في تناقص في الجزائر، وكلما خسرت شوطا كان لفائدة العربية لغة وثقافة، فالجالية الطالبية بتونس ومصر قد تزلعت في العربية وآدابها وخرج منها الأساتذة المبرزون.

والجالية الطالبية على وجه العموم سواء بالزيتونة أو بالقرويين أو بالأزهر أو بعامة الجامعات الشرقية قد استرجعت مكانة الجزائر كبلاد منتجة في حقل الضاد والمعاهد العليا والعربية بالجزائر المنسوبة لجمعية العلماء أو لغيرها قد أحييت التعليم الزيتوني بتأسيسها الفروع الكثيرة واضطرت المدارس الحكومية الثلاث إلى تعديل برامجها.

والملاحظ هو أن البربر في الطبيعة من الحركة الجزائرية كيفما اصطبغت وغايتهم عربية إسلامية لا غبار عليها. فلن يجد الوطنيون الجزائريون في يوم غد "مشكلة بربرية" تعثر في طريقهم وتنشر بذور الشقاق بينهم وتبعث بنعرة قد تفلق الحركة وتحد من نشاطها. فالجزائريون قد اجتازوا هذه الأزمة بسلام وبدون كثير خسارة بل بإذكاء لنار العروبة والله الملمهم لسواء السبيل.

5 - المغرب الأقصى:

ثلاث قبائل بربرية تتوزع العمران وتتنازع السلطان بالمغرب الأقصى:

أ- المصامدة:

ومصمودة هي أقدم قبيلة بربرية مستقرة بالمغرب. تشغل الأطلس الكبير والسرس والأطلس المضاد، وهي تؤلف أغلبية السكان إلى اليوم ليس فقط بهذه الجهات الجبلية بل أيضا بالسهول الغربية. أما إخوانهم في الجنس بنو غمارة فهم يسكنون الجبال الشمالية أعني ناحية الريف. والمصامدة جميعا

مستقرون لا رحل يسكنون القرى والمدن وقد اجتازت بهم زحفات بربرية أو غربية أو افريقية. فكانوا في حركة دائمة لفتح الأندلس أو لفتح من الأندلس. وكانوا محل تأثر بالحضارة الأندلسية بسبب من هاجر إلى جهتهم من بلاد الأندلس الغربية وبمن قامت من الدول ذوات الحضارة الممتازة بجهتهم مثل دولة الصديين بمدينة سبتة.

ب- الصناهجة:

جاءت صناهجة إلى المغرب من شرق شمال إفريقيا حيث استقر البعض بجبال القبائل منذ قديم مثل زاوية وكتامة وصناهجة هم الذين فتحوا الصحراء وتخوم السودان وادخلوها في الإسلام.

ويتألف من صناهجة بالمغرب كتلات كثيفة بالريف على الخصوص وهي هناك قديمة العهد. كما توجد عناصر صناهجية مبعثرة بالسهول وفي حاشية الجبال حيث استقرت منذ القرون الأولى الإسلامية. وصناهجة تشغل الجنوب من الأطلس الأوسط والمنطقة الغربية من الصحراء في الشرق والجنوب من الأطلس. وأغلب قبائل صناهجة من المنتجعين أو من كبار الرحل الصحراويين. غير أنهم يتدافعون رويدا رويدا نحو الشمال ليستقروا هناك.

ت- زناتة:

زناتة هي آخر قبيلة بربرية جاءت ديار المغرب واستقرت بالسهول المغرب منذ القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين بينما كانوا في

القرن الأول ومبادي الثاني مازالوا بطرابلس والجنوب التونسي والنجاد العليا الجزائرية ثم جاءوا المغرب بمفردهم أولا ثم متزججين في القرن الرابع مع العرب من بني هلال وبني سليم. فصاروا يؤلفون الآن كتلة كثيفة بشمال الأطلس المتوسط والمغرب الشرقي والصحراوي وقد امتزجوا بالعرب في الغالب.

والظاهرة الكبرى في المغرب اليوم هي أن البربر إثر الظهير البربري وإثر محنة السلطان وبفاعة الصحافة والإذاعة والاختلاط والمدرسة وسير التقدم العام قد كسروا إظهارهم القبلي وثاروا على رؤسائهم الجامدين العاملين بإذن المراقب الفرنسي وأرادوا الاندماج "الوطني" في عموم الشعب وتشكلوا تشكلا جديدا عماليا ونقابيا ووطنيا سيتولد منه شعب المغرب المتحد في يوم الغد إلا أنهم الآن في أزمة نشأة وطور انتقال ومحاولة إنشاء جديد طبقي ووطني يتصور تصورا واضحا في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية.

الممالك البربرية:

ألف البربر بالمغرب قبل مقدم الفينيقيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد مالك صغرى تحت رئاسة ملوك صغار يسمون اجليد يغارون على استقلالهم الفردي في محيطهم الصغير. ثم استولى الفينيقيون على البلاد من القرن الثاني عشر إلى سنة 146 وخلال الحروب البونيقية تألفت من المغرب امبراطورية تسمى موريطانيا تولى الحكم فيها ملوك من البربر أشهرهم بوخورس في القرن الثاني ق.م. الذي ناصر الرومان ضد بوغورطه.

ومنهم اسكاليس ومنهم بوغود. ودخل الرومان المغرب رويدا رويدا وفي سنة 25ق.م. ألحقوه بموريطانيا القيصرية أو الشرقية فجعلوه تابعا لمملكة يوبا الثاني. ثم تولاه ابنه بطليموس. ولما ثار على الرومان البربري تاكفاريناس والبربري ايدمون ألحقت رومة المغرب. وجعل منه الإمبراطور فلوديوس موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة ولم يتعد الحد الجنوبي لسلطان الرومان مدينة الرباط الآن بستة كيلومتر ثم يمر هذا الحد في الجنوب من مكناس وفاس. واهم المدن بهذا المغرب الذي لم يترامى إلا قليلا هي وليلي ولوييلس وسلا وبناسا.

الممالك البربرية الإسلامية:

دخل المغرب في الإسلام منذ فتوحات عقبة بن نافع. وسرعان ما تحول ليس فقط إلى ملكة إسلامية بل إلى عسكر إسلامي متقدم مباشر للغزوات. فتولى فتح الأندلس ثم فرنسا.

ومر المغرب الإسلامي البربري بمرحلتين قبل أن يستتم سيادته. المرحلة الأولى دينية سياسية. فقد انتشر مذهب الخوارج بالمغرب واعتنقه عامة البربر فأسسوا دويلات للخوارج في جهات كثيرة. وظهرت في الآن نفسه نزعة تأسيس "إسلامية بربرية".

فقد ظهر في قبيلة برغواطة التي هي من مصمودة والتي هي ضاربة بجهة الشاوية متنبئ يدعى صالح البرغواطي وألف قرآنا بالبربرية دعا إليه الناس فاتبعه من اتبع.

لكن هذه المحاولة "الاستقلالية" حتى في صورة الدين. سرعان ما فشلت وعمت الخوارج وأسسوا دويلات منها دويلة بني مدرار

في سجل ماسية غير أن البربر اجتازوا هذه المرحلة وأسسوا دولة عربية الرأس بربرية الجسم وهي الدولة الأدرسية (788م-924م) وهكذا تم في القرن الثالث الهجري مشروع كبير في كامل شمال إفريقيا نستطيع ان نسميه الاستقلال الداخلي بالإضافة (= بالنسبة) إلى الخلافة العباسية وإن كان يزيد عنه بخطوات جزئية فسيحة وتم هذا الاستقلال بإيجاد دول ثلاث عربية الرأس في معظمها بربرية الجسم ودواليب الحكومة فكان بنو إدريس بفاس وبنو رستم بطاهرت وبنو الأغلب بالقيروان، ونستطيع أن نقول إن دواليب الحكومة الأموية بالأندلس وجانباً كثيراً من السكان هم من البربر إلى حد بعيد، غير أن الخطوات الفسيحة الكبرى الطبيعية لم تخطها هذه الدول وهي "خطوة الوحدة المغربية" أو "الدول المتحدة المغربية" وهي لابد منها لأنها هي الظاهرة السياسية المغربية طال الزمان أم قصر وأحب من أحب وكره من كره.

وبالفعل فقد خطا هذه الخطوة الفاطميون لحسابهم الخاص، فتوحد المغرب لأول مرة وأجز المشروع الذي وقف دونه يوغورطه، بسبب منافسة مزاحمة من بني جلدته.

وكان الدولة الفاطمية تجربة ليس إلا، وفي النية إحالة الانتقال إلى مصر، وانتقل الفاطميون بالفعل إلى مصر وظهر باديس الصنهاجي الذي أسس مدينة الشير على حدود المغرب وبذل قصارى الجهد وهو العامل الكبير لتوحيد المغرب من جديد فتوفى إلى ذلك حيناً من الدهر وأخذ مدينة فاس، وتم له مرغوبه لفترة قليلة من الزمان، ثم مات دون ان يستطيع ترسيخ الوحدة.

وظهرت في المغرب دويلات صغيرة مشاقة، فرجعت صنهاجة على زناتة ودفعت بها إلى المغرب الأقصى، فظهر به منها بنو يفرن ومغراوطة وأسسوا به دويلات بفاس، ثم أسس بنو يفرن دويلة بسلا على نهر أبي رقرق، وأسسست مغراوة دويلات باغمات وتافياللت، وفي الآن نفسه ظهرت قبيلة مكناسة وأسسست مدينة مكناس، وجاء موسى بن أبي العافية المكناسي وأسس دويلة بفاس لحساب الفاطميين، وكأنما هذه الدويلة توطئة وتمخض لتأسيس الامبراطورية الغربية الكبرى فيبينما نرى صنهاجة الشرقية قد تقسمت إلى بني زيدي بالمهدية وبني حماد ببيجاية وبني حماد بالأندلس وقد ضعفت الدولة لهجوم النرمان على السواحل والأعراب الهلاليين والسليميين بالبراري إذ زحفت صنهاجة الجنوبية من السينغال (وادي الذهب) وأسسست دولة المثلثين (1025-1147) التي سادت بالمغرب وفتحت الأندلس من جديد ووحدت الأندلس ومعظم المغرب طيلة قرن، وكان لها مذهبها السياسي الديني المجدد الذي وضعه عبد الله بن ياسين ومذهبها وهو وحدة المغرب ومذهبها الفني المعروف بالفن المرابطي والذي منه آيات في الأندلس وكامل المغرب.

وما عتَم أن جاء المهدي بن ترمزت بالتعاليم الإصلاحية التي أخذها من حجة الإسلام الغزالي، فجدد الإسلام البربري وادخل إصلاحاً دينياً يعتبر أكبر إصلاح على مدى العصور وأسس الدولة الموحدية البربرية التي هي أكبر دولة للبربر وقد شملت الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس، فتمت فكرة توحيد المغرب العربي وتمت للبربر إمبراطوريتهم العربية الإسلامية وتم أكبر

إصلاح ديني إسلامي على يد البربر وظهرت أكبر فنون الإسلام المعروفة بالفن الأندلسي العربي وبالفن الموجد على يد البربر أيضا وعمت المغرب وبحرت

أوروبا وجزءا من أمريكا وظهر أكابر فلاسفة الإسلام وشعرائهم وكتابهم في هذا العصر البربري من ابن رشد إلى ابن خلدون.

فبربر المغرب إذا حركوا حركوا للإسلام والعربية ولا سبيل إلى أن تتخذ منهم ذريعة ضد الدين ولغة الضاد. وإن كانوا في جبالهم يتكلمون البربرية الشلحاء إلا أنها في تناقض لفائدة العربية وسوف لا تمر إلا مدة قليلة حتى يخرج منهم في هذا الجيل السياسيون والشعراء والمفكرون والكتاب العلميون وسوف تطغى الآداب المغربية في سنوات قليلة حتى تغمر سوق الشرق وتوجب إعجاب الشرقيين.

6 - البربر في الأندلس:

علاوة عما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن البربر ينتمون إلى أصل واحد مع الإيبيريين سكان اسبانيا الأقدميين. فإن جماعات منهم قد ذهبت إلى اسبانيا -وربما استقرت بها- على عهد فتوحات حنبيل القرطاجني هناك. كما أن جماعات أخرى انتقلت إلى هناك مع الجيوش الرومانية.

وفتح طارق بن زياد البربري اسبانيا ومعه جيوش من البربر من قبيلة أوربة على الخصوص. واستقدم منهم خلفاء بني أمية جماعات وفيرة وأنزلوهم جنودا لحاميتهم كما فعل ذلك المظهر

بن أبي عامر لقمع ما شاء على عهده من ثورات.

وعندما انفصل فرع من بني زيري وأسس دولة بني حمود الصنهاجية بالأندلس ثارت الخصومة الأبدية بين صنهاجة وزناتة.

وذكر لنا ابن خلدون أهم القبائل البربرية التي حلت بالأندلس وهي متغرة ومديونة ومكناسة وهوارة. وأضاف إلى ذلك ابن حزم قبائل أخرى منها مغيلة وملزوزة وفزة وأوربة ومصمودة وكتامة وجد بربرا من بني رزين في قلعة بني رزين. ومن لحاسة في بلدة رندة. وبني غزلون في شاطبة. وبني طريف في مدينة سالم. ومعظم من جاء الأندلس من البربر ينسب إلى زناتة منهم بنو الخروبي وبنو الليث وبنو يفرن وبنو برزال وبنو دمر وبنو خزر. وسبب مجيء الزناتيين يرجع إلى السياسة التي سلكها عبد الرحمان الناصر الأموي من استمالة زناتة المغاربة تمهيدا لفتح بلاد المغرب ابتداء من الأندلس وافتكاكها من الفاطميين. ولما زالت دولة بني أمية محل محلها ملوك الطوائف كان البعض منها من البربر الصرف مثل دولة بني حمود ودولة بني برزال وغيرهما. ثم استولى على الأندلس المرابطون ثم الموحدون. وتركوا هناك أقواما كثيرين من البربر. فلما هاجر المسلمون سنة 1107 هـ خرج العرب والبربر معا. ومن البربر من أم تونس بنفس الاسم مثل قبيلة عوسجة التي بنت مدينة عوسجة وقبيلة ماتلين التي بنت الماتلين وهلم جرا.

وبقي كثير من البربر بالأندلس تنصروا وتاسبنو تدل على

ذلك الكثير من المدن والقرى والجهات الاسبانية البرتغالية، ومن البربر من هاجر إلى اميركا مع الاسبانيين فالتقى بأجداده الأولين المستقرين هناك منذ عصور قديمة، وبقيت بعض مفردات بربرية في اللغة الاسبانية واللغة البرتغالية تتعلق بأسماء النباتات على الأكثر. وبالجملة فقد لعب البربر دورا رئيسيا في تاريخ اسبانيا والبرتغال طيلة عشرة قرون سواء في رئاسة الدول أو رئاسة الحكومات أو السياسة العامة أو ميدان العلم والأدب والفنون. ناهيك بفن المرابطين وفن الموحيدين والفن الموحن الذي عم الأندلس وأوروبا الغربية.

7 - البربر في فرنسا وانكلترا:

لقد رفع حنبل القائد البونيفي الكبير جحافل من البربر اخترق بهم اسبانيا (أيبيريا) وفرنسا (غاليا) وزحف بهم على إيطاليا من الشمال، فبقيت منهم جماعة بجنوب فرنسا، وفتح يوليوس قيصر غاليا في جيوش من أجناس مختلفة، فبقيت منهم جماعة بالحلمية الوسطى، وزحف عبد الرحمان الغافقي على فرنسا بجيوش عربية وبربرية، فبقي كثير من البربر بين نهر الغارون ونهر لوار وهم هؤلاء الشقر الموجودون بجبال فرنسا، وغزا الأغالبه والفاطميون وادي الرون من الفريجوس إلى سان غوطاء ومعهم البربر فبقيت منهم هناك جماعة، وهاجر بعض الأندلسيين وفيهم البربر إثر إجلائهم من اسبانيا على عهد فرنسيس الأول، فبقيت جماعة أخرى من البربر هناك إلا أنهم اندمجوا بالسكان ولم يعد تعرفهم ميسورا إلا بأسماء المدن البربرية وبالسحنة البربرية الممتازة، وهذا موضوع جدير بالبحث.

وانتقلت سفن البربر منذ قديم إلى انكلترا فاستبقت هنالك جماعات من البربر نتعرف منهم القيطوليين أو القويطس وهم الجيتوليون المعروفون عند العرب ببني جواله. أما بربر إيطاليا وصقلية ومالطة وقوصرة وسردانيا فأمرهم معروف لا يحتاج للذكر.

8 - البربر في بلاد السودان:

رأينا ان البربر والسودانيين من جنس واحد، وعلاوة عن ذلك فإن البربر الأصليين منتشرون أصالة في بلاد السودان، وخصوصا منذ العهد الفينيقي لأنهم كانوا يشتغلون رؤساء قوافل تجارية لجلب خيرات السودان والعبيد، ومنذ الفتح الإسلامي الأول أسلمت قبيلة صنهاجة بفرعها الشرقي والغربي وتدافعت في موجات متعاقبة واعتنت بإدخال معظم أهله في دين الإسلام، ومازالت مرابطة هناك هي وغيرها من القبائل في بلاد موريطانيا السننيغالية وعلى ضفاف نهر السينغال وبحيرة تشاد، ومن العسير أحيانا في بعض الجهات التمييز بين البربر والسوداني، ولهؤلاء البربر اتصالات متينة مع الطوارق والتبو في جهة الشرق، ومع بربر جنوب المغرب الأقصى غربا، ومن قبائل صنهاجة المغربية خرج محمد بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، وباعتبار وجود البربر في تلك الجهات فيجب اعتبار هذه الناحية من السودان جزء لا يتجزأ من المغرب وبالتالي من الوحدة المغربية التي تشمل الريف ومراكش والجزائر وتونس وليبيا وهاتيك الجهات.

9 - البربر في جزر الكناري:

هي جملة جزر واقعة في المحيط الأطلسي على مسافة قليلة من الساحل الغربي الإفريقي يسكنها نحو 700.000 ساكن. وسكانها الأقدمون هم الغوانتشيوس الذين أصلهم بربري، وانضاف إليها في العصر العربي بربر من بني غمارة (أحدى الجزائر تسمى غمارة) وبربر من هواره (مدينة بالمها اليوم تسمى في القديم بني هواره) وقد استعمرها عرب الأندلس وسموها الخالدات ثم انتزعها النرمان فالهولانديون فالاسبانيون بحيث أن السكان خليط ولكن معظمهم من البربر القدماء والحديثين ويتكلم الغوانتشيوس لغة منحرفة عن البربر مع اختلاف يسير بين جزيرة وأخرى - وبقيت منها إلى الآن نقوش صخرية بالحرف اللوبي القديم واللغة اللوبية إلا أن العلماء لم يفسروا هذه المنقوشات ولا اعتنوا بدراستها ولا قابلوا بينها وبين النقوشات الموجودة بشمال افريقيا وأميركا حتى تتبين الفروق والموافقات. وهذا ميدان للبحث فسيح طريف لمن عسى أن يعنى غدا بالمغرب من علماء البربرية والباحثين في حضارات البربر.

10 - البربر في أميركا:

لاشك أن البربر ذهبوا إلى أميركا حينما ذهب إليها أجدادنا القرطاجنيون في بعض الأقوال الراجحة، ولاشك أنهم ذهبوا مع جماعة المغامرين من مسلمي البرتغال الذين كانوا يترددون إليها حسبما شهد به الجغرافيون العرب. ولاشك أنهم ذهبوا إليها مع كريستوفر كولبوس حينما ساق رواد العرب سفنه إليها.

وليس هذا مانعني، وإنما نعني أن البربر ذهبوا إلى أميركا قبائل في عصور سابقة لظهور الفينيقيين أنفسهم أي سابقة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، فإن التيارات البحرية بين العرب وأميركا كانت تدفع سفن البربر إلى ساحل أميركا وتوجد بأميركا قبائل كاملة تحمل أسماء بربرية فتوجد قبيلة مطماطس وتوجد هنا قبيلة مطامطة؛ وتوجد قبيلة مابة وتوجد هنا قبيلة لمائة كما أن عادات هنود أميركا تشابه عادات البربر، وقد أُلّف في هذا الموضوع المؤلفون وخاصة الكومندان كوفيه صاحب كتاب البربر في أميركا، فليراجع.

ترى من هذا نطاق انتشار البربر ومبلغ مشاركتهم بتوفيق في كل حضارة قديمة وحديثة، فهم من صفوات الشعوب وخيرة الأمم وهم حريون بأن يؤسسوا مجموعة متحدة من الدول التي لهم فيها أغلبية لحتها العربية ودينها الإسلام ولغتها العربية وحضارتها صفوة الحضارات.

الفصل الخامس

الآداب البربرية

أ- اللغة البربرية:

1 - نطاق البربرية:

اللغة البربرية من أوسع اللغات نطاقا من حيث انتشارها. يتكلم بها اليوم من أهل مراكش خمسة ملايين، ومن أهل تونس مائة ألف، ومن أهل الجزائر أربعة ملايين، ومن أهل مصر بضعة عشرات من الآلاف. وميدانها يبتدئ من المحيط الأطلسي وينتهي إلى البحر المتوسط، ومن مضيق جبل طارق إلى إفريقيا السوداء. ويضاف إلى ذلك سكان جزر الكناري الذين يتكلمون لهجة بربرية خاصة بهم.

ولقد نطق هذه اللغة البربر اللوبيون المعاصرون للفرعنة منذ 35 قرنا، وتحدث بها أهل برقة القدماء الذين عرفهم اليونان بقريني، وهي لغة الجيتوليين والنوميديين والدوريطانيين الذين امتزجوا بالقرطاجنيين من القرن التاسع إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وقد اصطدم بهم الرومان أكثر من اصطدامهم بالقرطاجنيين أنفسهم وفرض هؤلاء الرومان لغتهم اللاتينية

على البربر بواسطة المدرسة والإدارة والكنيسة ودام سلطان الرومان ثمانية قرون، فلما اضمحل كانت البربرية قائمة، وعرف الرومان هذه اللغة البربرية، وميزوا بينها وبين البونيقية، بل عرفوا أنها تنقسم منذ ذلك العهد إلى عدة لهجات وحدثونا عما كانوا يلاقونه من مصاعب شائكة في تعلمها ونفورهم من تعاطي دراستها. فقال الكاتب الروماني فلينوس القديم متحدثا عن البربر: "يتعذر على حناجر غير حناجر البربر أن تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم".

ولما فتح العرب المغرب سنة 27 هـ وجدوا هذه اللغة البربرية منتشرة في الصحاري والجبال والجزر وفي المدن والقرى تزامها في الساحل الشرقي اللغة البونيقية أي اللغة الفينيقية المتأثرة باللهجات والنطوق البربرية.

وبقيت هذه اللغة بعد الإسلام، وبعد إسلام البربر الذي حسن منذ القرن الأول، وعدلت في الغالب عن الخط اللوبي القديم وكتبت بالحرف العربي، كتبت به تصانيفها الدينية الإسلامية، وشعرها وحكاياتها ونوادرها ودرس المسلمون هذه اللغة العجيبة و صنفوا كتبها في المقارنة بينها وبين العربية والعبرانية، وألفوا معاجم لها وللعربية معا، واعتنى أصحاب المعاجم النباتية من الغافقي إلى ابن الجزار إلى ابن البيطار بإيراد التسميات البربرية للنباتات التي يصفونها، وبقيت هذه اللغة لغة البلاط في الأسر المالكة البربرية من صنهاجين وحفصيين وحماديين وزنانيين ومرابطين وموحدين، بل كان غيرهم من ملوك المغرب يعرفها، فإن المعز لدين الله الفاطمي كان يتكلم بها

مع زعماء صنهاجة وكتامة واستعملها عبد الله الشيعي في دعوته للفاطميين بجبال القبائل وزواوة. كما استعملها المهدي بن تومرت في دعوته بين العروش والعشائر البربرية وبنى بعض الملوك الحفصيين جامعا ولم يكتب عليه اسمه، فقبل له في ذلك. فأجاب بالبربرية "يسنت ربي" أي قد علم الله ذلك، ودخلت مفردات بربرية في اللهجات العربية بالمغرب والأندلس وصقلية منها "الكرومة" و"الفكرون" وغيرها. وهي لغة اصطلاحية في بعض الحرف مثل لغة عمال الحمامات أو لغة خضاري الزناتيين وهي من أول اللغات التي كان يسميها الطفل الصغير عند الأسر الكريمة بتونس فإن "داداه" بربرية من قبيلة "الدويرات" غالبا فنحدثه بالبربرية فننشأ عليها. هي لغة السرف في بعض العائلات الناطقة بالصاد. ومن منا لم يسمع إخواننا المغاربة أو الوارقليين أو الميزابيين أو الزواويين أو الدويرات يتحدثون بلهجتهم البربرية الخاصة بهم.

ولما غزا الفرنسيون إفريقيا الشمالية حاولوا أن يتخذوا من هذه اللغة نحوا وأدبا لمنافسة العربية فألفوا كتب النحو في مختلف اللهجات و صنفوا المعاجم البربرية الفرنسية ووضعوا مجاميع النوادر والقصص. ونقلوا الحرف العربي الذي كان وما زال يكتب به البربر إلى الحرف اللاتيني كل ذلك ليهربوا بالبربر عن العرب.

غير أن النزعة العامة هي تناقص البربرية في كل ميدان فهي تتحول في كثير من الجهات من لغة مفردة إلى لغة مشاركة مع العربية. ومن لغة عامة إلى لغة خاصة بالمهنة أو

العائلة. ومن لغة عائلية إلى لغة نساء أو لغة سر وتناقصها يشمل في الآن الواحد ميدان الانتشار النسقي ووضع الشخص الناطق. فما بالعهد من قدم وفي عصور تاريخية قريبة منا كان أهل حمير يتكلمون البربرية. فعدلوا عنها إلى العربية ولم يبق في لسانهم من مفرداتها التي انفردوا بها الا كلمة "مش" بمعنى القط.

ولم يعد أهل السند بجهة قفصة يتكلمون البربرية إلا بعض الشيوخ منهم أو النساء العجائز.

وسبب تناقص البربرية هو انتشار التعليم ولو بشكله المنقوص. وتوفر طرق المواصلات التي لم تبق اية جهة معزولة عن بقية الجهات. وتنوع مطالب المعاش ومعارف الحياة التي احتاجت إلى مصطلح لغوي لا تتسع له البربرية. وانبثاق الإذاعة العربية التي غزت المنازل والمحيط النسائي وتسلطت على المواضيع والألسنة وتشنت القبائل البربرية التي خطم إطارها واندمجت أو على الأقل اختلطت بالقبائل العربية. وذلك منذ العهد الأغلبي وخصوصا منذ زحفة الأعراب الهلاليين الذين كسروا بتونس -على الأقل - الرابطة البربرية واندسوا في الجزائر والمغرب بين الطبقات البربرية ففككوا أوصالها. ولا ينبغي إن ننسى الدور الذي قامت به الطرق -وبقطع النظر عن كل اعتبار آخر- في تعريب البربر وتمكنهم في الإسلام ثم إن نزعة الانتساب إلى الشرف المنبثة في كثير من الأسر الكبيرة البربرية حملهم طبعا على اطراح لهجاتهم البربرية جيلا بعد جيل.

وبعد فما هو أصل هذه اللغة البربرية التي بلغت من العمر 35 قرناً وعاشرت جميع دول المغرب وقد استعرضنا مراحل تاريخها؟

2 - أصل اللغة البربرية:

اللغات عائلات ثلاث:

السامية والحامية والهندية الأوروبية. فالسامية هي البونيقية والعبرانية والسريانية والعربية، والحامية هي المصرية القديمة والقبطية والسودانية، والهندية الأوروبية هي اليونانية واللاتينية ولغات أوروبا الحديثة.

ومع أن البربر عاشروا البونيقين والرومان واليونان والعرب وتعلموا لغاتهم وكتبوا فيها وصاروا أحياناً من أقطابها، وقد دخلت مفردات كثيرة من تلك اللغات في اللسان البربري فليست البربرية منتسبة إلى أية لغة من تلك اللغات بشكلها الحاضر.

والحقيقة هي أن للبربر لغة سامية أولى Proto-Semitic في عهد قديم جداً تولدت منه فيما بعد اللغات السامية واللغات الحامية، أو أن البربرية - باصطلاح آخر يرجع إلى الاصطلاح الأول - هي لغة سامية حامية، ولهذا نجد لها قرابة متينة بالمصرية الفرعونية والقبطية من ناحية، وباللغات الحبشية والسودانية من ناحية أخرى، فقرابتها باليمينية القديمة ليست مستبعدة بهذا الاعتبار، وقرابتها من العربية في أصل المنشأ صار أمراً محققاً.

والمفروض منه على كل حال هو أن البربرية لغة سامية حامية

أي لغة سامية أولى.

وأول من اكتشف هذا هو دوناش بن قرش القيرواني في القرن الثالث للهجرة ورجع إليه علماء هذا العصر بعد طول تيه وكثرة تطواف.

وبعد هذا التحقيق فلا بأس من استعراض بعض النظريات في الموضوع:

أ- البربرية والباشفانسية:

الباشفانس (باسك) شعب قليل العدد من متبقيات السلط يسكن الشمال الغربي من إسبانيا والجنوب الغربي من فرنسا. وقد اتصل به العرب والبربر خلال فتوحاتهم بفرنسا والأندلس وهناك النظرية الضعيفة المردودة القائلة إن البربر والباشفانس كلاهما من السلط قدماء سكان أوروبا وأجداد الغالين سكان فرنسا القدماء، والابيريين سكان إسبانيا القدماء، فذهب بعض العلماء يبحثون عن وحدة الأصل بين البربرية والباشفانسية وأشهرهم شارانسي الفرنسي، وقابلانتز وشوخارت الألمان، والنتائج التي وصلوا إليها هزيلة جداً.

ب- البربرية واليونانية القديمة:

المسماة لغة تركية وبيلاج ذهب الفرنسي برلكون إلى أن البربرية أخت لليونانية القديمة، وإذا كنا نجد مفردات كثيرة من أصل يوناني في اللغة البربرية فما ذلك إلا من تأثر البربر بالحضارة اليونانية منذ عصر البونيقين وبخاصة في عهد الاستقلال البربري وولوع الملك يوبا الثاني بالأدب والفنون اليونانية ولا

ينبغي أن ننسى أن البيزنطيين - وهم يونان - سادوا بلاد البربر طيلة قرن قبل الفتح العربي - فليس ما قاله برلكون بحجة على وجه الإطلاق.

ت- البربرية السودانية:

بحث بعض العلماء عن الصلات بين البربرية والسودانية وخصوصا لغة الحواسة، ومن المعلوم أن الحواسة والمصرية القديمة لهما صلات متينة فنرجع بذلك إلى قضيتنا الأولى وهي اللمحة الموجودة بين المصرية القديمة من ناحية والحواسة من ناحية أخرى والبربرية من ناحية ثالثة.

ث- البربرية والمصرية القديمة:

هذه هي نظرية الفرنسي دوشمونتاكس وهي وجيهة وقد صارت الآن الراجحة، ويوجد إلى جانب هذه النظريات نظريات أخرى أكثر افتراضا منها.

ج- البربرية والايترورية:

(اترسك) وهي لغة إيطاليا قديمة قبل الرومان. وقد ذهب إليها برينتون ولكنها بعيدة الاحتمال.

ح- البربرية والطورانية:

أي اللغة التركية القديمة وقد ذهب إليها الفرنسي رين، وهي بعيدة الاحتمال جدا.

و - البربرية والكندية:

أي لغة شمال أميركا قبل اكتشاف كولومبوس، وهي لغة

قبائل الهورون والعلبوت أي القبائل الهندانية أو الهنود الحمر. وهذا له وجه إذا صحت النظرية التي تقول إن البربر اكتشفوا أميركا في عصور متقدمة.

ومهما يكن فإن النظرية الراجحة هي أن البربرية لغة سامية أولى أو سامية حامية وكلاهما بمعنى واحد، ولا يحل الشكل بصفة نهائية إلا إذا درست اليمينية القديمة وقبض الله من علماء المسلمين من يتخصص في اليمينية القديمة والمصرية القديمة والبربرية في الآن الواحد.

الخط البربري :

اقتبس البربر منذ قديم خطا بحروف صائنة منفصلة وضعوا بعضه من تلقاء أنفسهم واستنبطوا بعضه الآخر من الحرف الحميري ومن الخط المصري القديم. ويعرف هذا الخط بالخط اللوبي، وهو يوجد منقوشا على الصخور بالجهات الصحراوية وعلى مشاهد القبور في غرب تونس وشرق قسنطينة وبجزائر الكناري، ومازال يكتب به الطوارق المثلثون ويسمونه تافيناغ، ويظهر لنا أنه تعطل منذ القرن الثاني للهجرة عطله الخواج وقلبوه إلى الخط العربي مع استنباط حروف زائدة في لغة البربر، ووضع الفرنسيون للخط البربري حرفا لاتينيا فلم يفلحوا.

اللهجات البربرية:

تنقسم البربرية إلى لغة قديمة وهي اللوبية ولا توجد بها إلا المنقوشات الصخرية، وإلى البربرية الوسطى وهي من القرن الثالث الهجري إلى السابع ويوجد بها كتاب المدونة في الفقه

الاباضي لابن غانم ويوجد بها قاموس بربري عربي بجزيرة جربة، والبربرية الحديثة وهي نحو الثلاثين لهجة بين شمالية وجنوبية يوجد منها بمصر لهجة واحدة، هي سيوة المعروفة بواحة عمون وهذه اللهجات منتشرة بليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وجزر الكناري.

هذه اللهجات تحتاج إلى دراسات يتولاها أبناء البلاد بنزاهة وأسلوب علمي بحت. وهذا حقل من حقول العمل في عهد الاستقلال إن شاء الله تعالى. حتى تثرى العربية وتصير مرجعا عالميا لهذه البحوث وتبين ملامح الانتاج البربري بصورة جلية.

ب- الأدب البربري:

1 - خصائصه:

الأدب البربري هو مجموع ما صنف في البربرية كتابة من تصانيف دينية أو مجاميع قانونية أو أشعار أو قصص. أو ما تناقله الناس مشافهة من أشعار ونوادير وأمثال وحكم فالأدب البربري كتابي وشفاهي وهذان النوعان ينقسمان بدورهما إلى أدب جاهلي أو سابق للإسلام، وأدب إسلامي.

أ- الأدب الجاهلي:

والمقصود به الأدب الذي ازدهر في العصر البربري الأول. ثم البونيفي. ثم عصر الاستقلال البربري. ثم العصر الروماني فالواندالي فالبيزنطي.

والبارزان من هذه العصور هما: العصر البربري الأول السابق

للاحتلال الفينيقي أي الممتد من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن الثاني عشر ق.م. يوم حل الفينيقيون بسواحل افريقيا الشمالية، والحقيقة هي أن هذا الأدب مفترض الوجود فلم يبلغنا منه في الواقع أي أثر إذا استثنينا النقوش الصخرية التي هي في الغالب صور لا توجد بها كتابة إلا في قلة. حتى إذا وجدت فحروف ليس إلا ولا مزيد.

ثم عصر الاستقلال البربري: في القرن الثاني قبل الميلاد يوم تطاحن القرطاجنيون والرومان في الحروب البونيقية الثلاث فاغتنتم البربر هذه الفرصة لإعلان إمبراطورياتهم وإنشاء مؤسساتهم القومية ومن ضمنها الأدب الوطني غير أن الملاحظ هو أن هذا الأدب الوطني لا بد أن يكون قد كتب في بعضه على الأقل باللغة الأدبية القديمة. لكن ما وصلنا منه مكتوب باليونانية عند البعض مثل الملك البربري العالم والفنان يوبا الثاني. أو مكتوب بالبونيقية عند البعض الآخر. مثل تصانيف الملك البربري هيامبسال. ولم تبلغنا منه إلا منقوشات أضرحة لا تفيد كثيرا.

ب- الادب الإسلامي:

هو أدب البربر الكتابي والشفاهي الذي ابتدع في العصور الإسلامية من القرن الأول للهجرة إلى الآن أي انتاج 14 قرنا وهذا الأدب ينقسم إلى أدب البربر الذي ألفوه بالعربية في مواضيع إسلامية أو عربية عامة. وتصانيف عبد الله بن أبي زيد النفري أو ابن غرفة الوردغمي أو الونشريسسي. أو شعرتيم بن العز

الصنهاجي وابي زكرياء الحفصي. فهذا كثير لا يتسع له نطاق بحثنا.

ثم أدب البربر الذين ألفوا بالبربرية، أو بالعربية لكن في مواضيع خاصة بالبربر كالتواريخ والأنساب البربرية أو الفقه الاباضي البربري، أو الشعر أو القصص وال نوادر المستفاة من صميم الحياة البربرية.

أ- الفقه:

الفقه الإسلامي مجموعة العبادات والمعاملات المستخرجة أصولها من القرآن والحديث والقياس والإجماع وهو إما فقه بحت، أو نوازل أي قضايا قديمة قياسية اتباعية صادرة في صور شاذة ونادرة وعجمية فتقاس عليها القضايا الجديدة مثيلاتها أو المشبهة بمثيلاتها، وهذا يسمى بالفرنسية Jurisprudence أو عُرف ويسمى أيضا العمل ويسمى عند البربر أما مالكي ومؤلفوه داخلون ضمن عموم المؤلفين المغاربة أو الأندلسيين أو الصقليين. فلا نفردهم بالدراسة ويشذ عنهم بربر المغرب أو "القبائل" بالجزائر الذين هم مالكية أصالة إلا أنهم يطبقون في معاملاتهم الخاصة بهم "قوانين الجماعات" أي "عمل أهل الجبل" أو العرف البربري.

وأما ان الفقه البربري اباضي، والاباضية لا يوجدون في مراكش، وهم في الجزائر أهل شبكة ميزات على الخصوص وفي تونس الوهبيون من جزيرة جربة، وفي ليبيا جبل نفوسه وأهل مدينة زوارة.

وحديثنا في هذه الدراسة هو عن أدب القوانين عند البربر المالكية أو عن أدب الفقه الاباضي، وبصفة عامة عما ألف البربر من كتب دينية ابتداء من دخولهم الإسلام فنقول:

أولا: البربر والقرآن:

دخل القرآن الكرم مع الإسلام بلاد البربر يوم فتح العرب المغرب، فدهش البربر من بلاغة الكتاب المقدس، وسحرتهم أحكامه وفتنتهم مبادئه الأخلاقية السامية والتعاملية العادلة وبهرتهم تعاليمه الخيفية وانتشر القرآن بينهم منذ النصف الأول من القرن الأول بواسطة "الكتاب" تلك المؤسسة البسيطة العظيمة التي هي معهد نشر الإسلام ورواج العربية، وعلى رأس القرن أرسل عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي عشرة من الفقهاء بتخريج أهل افريقية والمغرب في اللغة والدين وتكون منذ ذلك العهد "المؤدب البربري" الذي حل محله "الكوهن البونيفي" و"الماجستير الروماني" واستقر بالجبل أو الصحراء، في الضيعة أو القرية أو المدينة يعلم أبناء البربر اللغة والأخلاق والدين بواسطة القرآن وسرعان ما صار أبناء البربر يذهبون إلى مصر والمدينة والكوفة لفهم معاني القرآن ورواية الحديث كما كان أجدادهم يذهبون إلى جامعة قرطاجنة أو جامعة دومية أو جامعة أثينا أو الإسكندرية للتضلع في آداب الرومان واليونان، وهكذا صار القرآن كتاب البربر ووقف البربر من هذا الكتاب مواقف ثلاثة:

الموقف الأول: وقفه معظم البربر، فحافظوا على القرآن

بالعربية وفسروه فيما بينهم بالبربرية أولاً ثم بالعربية بعد ذلك.

الموقف الثاني: وقفه بعض البربر، فنقلوا القرآن إلى اللغة البربرية، مثلما نقله الفرس إلى الفارسية والتركي إلى التركي. وتقول بعض المصادر أن المهدي بن تومرت زعيم الموحدين والمصلح الإسلامي الأكبر الذي اخذ تعاليمه عن حجة الإسلام الغزالي. قد نقل القرآن إلى البربرية ليفهمه عنه جماعته من البربر المصامدة، ولعل الناقلين لهذه الرواية هم خصوم المهدي وقصدهم من ذلك توريطه والخط من قدره في نظر المسلمين ولعله - وهذا الأرجح - قد نقل القرآن لمصودة مشافهة وفسره لهم بالبربرية ليفهموه ويتبعوه.

ويقال أن طالبين من طلبة البربر قد نقلوا القرآن في القرن الماضي إلى البربرية فقتلا من أجل ذلك، ومهما يكن فإن قضية نقل القرآن إلى البربرية قضية غامضة لم يرسل عليها بعد ما يوضحها من أنوار البحوث، ولعلها دسيسة من المتبربرين الفرنسيين ومستقبل البحث كشاف.

الموقف الثالث: وهذا موقف فردي وهو موقف بعض المتنبيين من البربر أو التنعصبيين لخلق وطنية بربرية ضيقة وإيجاد إسلام بربري بحت، ففي سنة 127 هجرية ظهر متنبي في قبيلة برغواطة البربرية الضاربة بالمغرب على سواحل المحيط الأطلسي بجهة مدينة سلا، فادعى هذا المتنبي المسمى صالح بن طريف البرغراطي أنه جاء بإسلام جديد خاص بالبربر وصنف قرآناً

باللغة البربرية نقل أبو عبيد البكري بعض فصوله الثمانين وقد بقي هذا القرآن سرياً، ثم جهر به وانتشر بين بعض أهل تلمسان طيلة قرون حتى قضى عليه الموحدون في القرن السادس.

وفي سنة 313 هجرية ظهر متنبي آخر في قبيلة بني غمارة بالريف يدعى حميما وألف هو الآخر قرآناً بالبربرية دعا إليه قريته، ولكن لم تدم فتنة حميم إلا قليلاً حتى قضى عليه قضاء مبرماً.

وكون محاولة تأليف قرآن بربري لم تتجاوز شخصين وكونها قتلت في البيضة كما يقولون فإن دلت على شيء فإنما تدل على تمسك البربر بالكتاب الكريم واغلب حملته ومروجيه من سكان شمال إفريقيا منهم، بل قد ظهر منهم بعض المفسرين الكبار مثل ابن عرفة الورغمي وعبد الرحمان الثعالبي وغيرهما كثيرون.

النثر البربري:

النثر البربري عامة إذا استثنينا كتب الفقه البربرية مثل المدونة لابن غانم وبحر الدموع، أو المفسرة بالبربرية - وهي كثيرة - لا يتألف إلا من مجموعات شفاهية لم تدون بالكتابة إلا في عصور أخيرة ولغايات سياسية أكثر منها علمية، وهذا الأدب الشفاهي يتكون في الغالب من قصص وخرافات تنقسم إلى:

1 - حكايات العجائب والغرائب:

وهي اما ذات صبغة سحرية أو ذات أصل أدبي ولها أشخاصها المشهورون بها وأصولها فينيقية ورومانية وفي الأغلب الغالب

عربية، ومردّها في الأكثر إلى ألف ليلة وليلة مع زيادات بربرية ولا بد أن يكون هنالك أصل بربري ملحّمي أو غير ملحّمي قد ضاع خلال العصور واندمج في العناصر الأخرى.

2 - النوادر:

وهي مقطعات مضحكة للفكاهة أو للعظة أو للتربية الأخلاقية والاجتماعية، بطل هذه النوادر هو جحا قطعاً ونوادير جحا المجلوبة من إيران والهند دخلت البلاد في القرن الرابع على عهد الفاطميين وانتشرت عند جميع أمم البحر المتوسط، فهنالكَ جحا البربري كما هنالك جحا المالطي أو الايطالي أو البلغاري، وأول ذكر لجحا قد ورد في الفهرست لابن النديم، لكننا نجد نوادر جحا حتى في الحيوان للجاحظ مما يدل على ان هنالك أصلاً اشوريا (= عاشوريا) قدما نقله الملاحون البونيقيون إلى بلاد المغرب فانظم إلى مترجمات جحا عن الإيرانية والهندية ما ذكر ابن النديم.

3 - قصص على أسنة الحيوانات:

وهذا كثير في الآداب الشعبية فلا حاجة للتبسط فيه فعلاوة عن القصصية الحيوانية البربرية القديمة التي اوردها الكاتب البربري أبولوس (في العهد الروماني) وأخذها عنه لافونتين الفرنسي، توجد مقتبسات من كليلة ودمنة ومن لقمان وغير ذلك.

4 - القصص التاريخية:

توجد عند البربر قصص تاريخية وملاحم حماسية منها

التاريخي بالمعنى الخاص ومنها الديني المشوب بالتاريخ كقصة المهدي ومنها مناقب الأولياء التي هي بين الترجمة والكرامة والنوع الاغرابي، هذه كنوز ثرية عجيبة فلماذا لم يخرج منها البربر ملحمة كبرى مثل الصاغا عند الايسلانديين أو الالياذة عند اليونان أو "الانبيذة" عند الرومان أو العنترية عند العرب؟ هذا هو محك السؤال.

الشعر البربري:

يوجد الشعر عند ثلاث فرق من البربر وهم الطوارق المثلثون والقبائل وبربر المغرب الأقصى، والشعر اما تعبدي وإما أناشيد ايقاعية للمساعدة على العمل، وتعقد عند المغاربة مجالس شعر مع أناشيد وتلاحين، وأشهر شعراء المغرب هم اليزلان بالأطلس الأوسط، والشعر عند القبائل كان حماسياً بمجد مغامرات القبيلة أو القرية ويروي بطولة أبطالها، وعند الاحتلال الفرنسي صار بمجد الأبطال الذين استشهدوا في الجهاد ثم صار بعد الاحتلال محتشماً لا يزيد عن غراميات شخصية ليست بذات شأن كبير.

والأدب البربري صالح لتكوين مسرحيات ذات صبغة شعبية صميمة ونزعة تاريخية واضحة، وهو صالح لتكوين أدب أطفال وطني لا نحتاج فيه إلى النقل عن الأجانب وهو صالح لتنغذية الأدب بعناصر جديدة طريفة وأحاديث ممتعة وأشعار مستمدة، فمتى يا ترى يخرج من البربر باحثون وناقلون يجعلون الأدب البربري المترجم والمقتبس والمهذب والمجدد عنصراً حياً من عناصر

الأدب العربي، ومنتى نترجم جميع ما كتب الفرنسيون في الموضوع حتى لا نبقى مستعمرين ثقافيا على وجه الدهر.

الفصل السادس

الفن البربري

عموميات:

الفن البربري أصيل مبتكر، وكان يبقى أصيلا مبتكرا لو أنه لم يتأثر - من حسن الحظ أو من سوء الحظ - بفنون الأمم المختلفة ذوات الحضارات الراقية التي تعاقبت على البلاد، إلا أن نبوغ البربري منحصر في كونه يستطيع أن يقتبس صفوة الحضارات وأن يستسيغها وأن يضمها إلى بعضها في باقة حضرية ممتازة يفرغها في قالب خاص به وبموهها بمسحة وطنية بحتة تذهب عنها أثر العجمة وأن يطبعها بميسمه الخاص فنزول عنها كل متبقيات الصبغة الأجنبية.

والفن البربري ثلاثة أقسام:

1 - الفن المعماري، 2- الفنون المستظرفة، 3- الفن الأدبي.

1 - الفن المعماري:

الفن المعماري البربري في أصله يتلخص في القلعة والمدفن الهرمي، فالقلعة هي قضية المدينة أو القرية ومقر

حكومتها ومجمع معابدها ومدخر اقواتها ومحفل اجتماعاتها ومفاوضاتها. فهي في الآن الواحد حصن وقصر حكومة ومعبد ومختزن وساحة شعبية. ومهما تطور تاريخ البربر وجدنا القلعة في المقدمة اصيلة ومنتطورة في الآن الواحد. فهي "البورسة" عند البونيقيين و"الكاستروم" عند الرومان و"الرباط" عند الأغالية، و"القصر" عند الفاطميين، و"القصة" عند الموحدين أي بناء هرمي مقطوع تولدت منه "صومعة" القيروان و"صومعة" صفاقس فكلتاهما في الحقيقة حصن مصغر مشتمل على كامل خصائصه وما الأذان إلا جزء منه حتى إذا جاء الموحدون وابتدعوا الفن المعماري الموحدى تمتعت خطوط الصومعة بمزيد الحرية والاستقلال والرشاقة والانبراء فصارت مكعبا مستطيلا وحررت من قيود الشكل الهرمي المقطوع.

والمدفن الهرمي بربري أصيل تولد منه الهرم المصري وانتشر انتشارا كبيرا في عهد الاستقلال البربري من عصر غولاء وماسينيسا فما بعد. وجده في قبر كليب بمسيوح وفي منضدة يوغرطة بقلعة الضم وفي قبر الرومية فسسنطينة إلى غير ذلك.

وبقي الفن المعماري البربري منحصرا في قيود رومانية في عصر الاحتلال الروماني. إلا أنه أخذ حريته منذ عصر الولاة فبنى صومعة القيروان ثم صومعة صفاقس وتم استقلاله في عصر صنهاجة فكون التاج الصنهاجي الكلل للعموم وابتدع الزليج الفسيفسائي أي الجامع بين صيغة الزليج الذي هو خرف مطلي وصيغة الفسيفساء التي هي ترصيع لأشكال معينة من جُم

وسفط وطوير ليل والوان معينة تؤلف في تراكيب لأحد لها. وابتكرت صنهاجة فرش الأرضية بالزجاج المحتم بالفضة والذهب. وفي العصر الحفصي جاء قاسم الزليجي الصنهاجي وابتكر الزليج المزخرف على البارز بأنواع الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية والخطية المدهشة.

ثم إن الفن البربري تطور في العهود الإسلامية فأعطانا الفن الصنهاجي الصحراوي الذي جده بجوامع البلاد السوداء. وأعطانا الفن المرابطي ثم الفن الموحدى بالمغرب والأندلس وسرعان ما استقل عن الفن المشرقي في أجزائه من نوع القوس المهموزة والمنفوخة المشرفة وقوس الجب، ومن نوع العمود والتاج والقبه والصومعة، ومن نوع كساء الزليج والنقش العربي والخط الكوفي والنسخيين المغربيين ومن نوع سقوف الدمس والخشب المحزم والمجلى بالصور والمشاهد الفاتنة، وفي كلياته من عموم شكل القصور والجوامع والرباطات وأسوار المدن.

ثم اعطانا الفن المدجن الذي نشأ بالأندلس ثم عم المعمار الإسلامي بالمغرب في العصور التركية، والمعمار النصراني بأوروبا في عصر نهضتنا، ثم المعمار الأميركي بعد اكتشاف القارة الجديدة.

فأية قوة في هذا الفن البربري الذي عم الدنيا في عصر انحطاطه، وماذا عسى أن يكون مستقبلة الوطني والعالمي في يوم غد؟

2 - الفنون المستخرقة:

وهي الموسيقى والرقص والتمثيل والنحت والتصوير.

أ- الموسيقى:

الموسيقى متصلة اتصالا وثيقا من حيث الأصل المتحد أو المجاورة بالموسيقى الصينية والهندية في الشرق، والموسيقى السودانية في الغرب، والموسيقى الجزرية الايجية في الجهات الجزرية التي يسكنها البربر مثل جربة وقرقنة، وهذه الموسيقى تمتاز أولا بأنها إيقاعية تعتمد على ضرب الكف والقرع والنقر، فهي رقصة مرقصة أصالة، وجملتها الموسيقية قصيرة طبعاً وسلم نبراتها لا يتجاوز الخمس فلا يصل النبرات الثماني الكلاسيكية ويستعيز عنها بالطرفة أو "النزرة" البربرية التي جعلت لتغطية المسافة السلمية الفارغة أو بالسواكت الإيقاعية أو المقحومات الصائنة مثل "يالالان" في المألوف الأندلسي، و"المذيلات" التي تمتاز بها الطبوع المغربية، وتأثرت هذه الموسيقى خلال العصور بالموسيقى البونيقية التي هي سامية الأصل، وبالموسيقى اليونانية حينما أسس يوبا الثاني معهدا للموسيقى بمدينة شرشال وألف موسوعة موسيقية كبرى، وبالموسيقى الرومانية لاسيما بعد إحدات المعهد الموسيقي الملحق بجامعة قرطاجنة وإحدات "اوديون" للاستماع في كل بلدة من المغرب وأنشاء المباريات الموسيقية ذات الجوائز الكبرى، ولما جاء العرب جاء الحداء فأخذ البربر ارباب القوافل ولاسيما الطوارق، وجاء زرياب إلى القيروان ومونس البغدادي إلى المهديّة

فانتشر الغناء العربي، وزحف الاعراب من صعيد مصر فتفتت القبائل البربرية وتعربت فزالت الموسيقى البربرية من تونس وبقيت في جهات بعينها من الجزائر والمغرب من جبال وصحاري، وجاء بن ابي الصلت من الأندلس فعلم أهل افريقية الموسيقى الأندلسية المبنية على الموشح والزجل والقائمة على الونبة بأجزائها الإيقاعية والاستثنائية والاستبطائية بالخلاف والتوسع في الجملة الموسيقية، ثم سقطت أشيلية عاصمة الفن فانقل أهلها إلى شمال افريقيا بفنهم، ثم سقطت غرناطة ثم تمت الهجرة النهائية سنة 1017 على عهد عثمان داي، فعمت الموسيقى الأندلسية مدن المغرب وانضمت إليها البشارف التركية، وانحصرت الموسيقى البربرية في الجبال والصحاري مع تأثر ظاهر وتتمثل لنا الموسيقى الرقصية الجامعة التمثيلية في الأحيدوس والأحواش والموسيقى الإنشادية عند قبائل أزموور في المغرب وزواوة في الجزائر.

ب- الرقص:

الرقص البربري ممتاز، يختص بكونه جماعي مثل الأحيدوس والأحواش، وبكونه متحرك صفاً أو استدارياً وبكونه التوائياً من أسفل إلى أعلى مثل حركات الأفعى، وقد درس دراسات كثيرة لا عيب فيها إلا أنه ليست بالعربية.

ت- التمثيل:

التمثيل قديم عند البربر جاؤوا به من الهند وأسس له يوبا الثاني معهداً لتدريسه بشرشال وألف فيه التصانيف.

والتمثيل البربري اما ديني على الطريقة الهندية واليونانية القديمة فهو أناشيد ورقص وحركات وتصاوير تمثيلية لاسترضاء الإلهة أو إبعاد غضبهم. أو خزعبلات مضحكة للسخرية من بعض الشخصيات البارزة وإظهار عيوب الناس المنتقدة. وشارك البربر في التمثيل اليوناني ثم الروماني لاسيما وقد نبغ منهم طيرستوس القرطاجني أكبر مسرحي باللغة الرومانية. وقد بنى ابن جلدتهم غوردانوس مسرح الجم وهو من أكبر المسارح الرومانية. والمسارح منبثة في شمال افريقيا يدل على ولوع البربر بالفن المسرحي.

ث- النحت:

البربر مولعون بالنحت منذ قديم. وطبيعي أن ينحتوا فقد كانوا عباد أصنام فنحتوا أصنامهم. ثم عبدوا القياصرة فنحتوا قياصرتهم. ثم تنصروا. والتمثال من عناصر الطقوس النصرانية. ونحن نشاهد كثرة فاحشة من التماثيل وعامة المنحوتات في الآثار والمتاحف. وإذا خفيت هذه النزعة في صور الإسلام فانها نبهت على عهد الفاطميين. والأزميل البربري من أبداع الأزاميل في النحت الرائع البديع لاسيما بعد أن أسس يوبا الثاني مدرسة للنحت بشرشال وزين قصوره ومعاهده بالمنحوتات.

ج- التصوير:

بدأ التصوير على الصخور منذ عهد متقدمة وهو تصوير خطي ورسومي. والرسوم تمثل الحيوانات والأشخاص فرادى أو جماعات أو في مواكب صيد والتخطيط صادقة والملامح واضحة

إلا أن النسبة مختلفة. وقد يبلغ فن التصوير البربري من دقة الجزئية ما يوجب العجب. واستمر البربر على التصوير فوق بيض النعام والعظام والحجار والصوف والخزف وغالب التصاوير شائكة لإبعاد العين فأكثرها من السمك والجمال والسنابل والطيور وأكثرها من الزخارف الهندسية الشائكة مثل الصليب والمعين.

وبان تصويرهم بارعا فوق الزيتيات الجدارية وفي الفسيفساء وأرقى تصويرهم في العهد الصنهاجي على الخصوص حيث مازلنا نشاهد سقف البالاتينا بمدينة بالرم بصقلية. وهو من روائع الفن الصنهاجي.

ورأينا أن يدرس الفن البربري بمزيد الدقة وأن يحاكيه فنانونا المعاصرون الذين يبحثون عن أنفسهم ويدخلهم العجب المضحك لأنهم صاروا يقلدون نوعا ما الفن الأوروبي.

الفصل السابع

الوحدة البربرية

نذكر جيدا أننا كنا حضرنا في شتاء 1937 بحثا مستفيضا ألقاه الأستاذ ماسينيوس بمعهد الكوليج دي فرانس وجعل موضوعه وعنوانه "الوحدة البربرية" أو "الجامعة البربرية" Le panberberisme.

ما هي الوحدة البربرية هذه؟ هي أولا وبالذات نزعة سياسية موهومة ظاهرها رحمة وباطنها عذاب.. أو بالاحرى إنها كلمة حق أريد بها باطل. فقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس ماسينيسا وسيفاكس ويوغورطه وغيرهم من ملوك البربر إمبراطورية بربرية متحدة في القرن الثاني قبل الميلاد واغتنموا لذلك فرصة الحروب البونيقية القائمة بين القرطاجنيين والرومان.

ولقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس العاهل بلكين بن زيري الصنهاجي إمبراطورية بربرية ضمت الجزائر وتونس وطرابلس وكادت تضم المغرب الأقصى بعد ما فتحت فاس. وضمت فعلا جزءا من الأندلس.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أمس المرابطون إمبراطورية بربرية وحدت الأندلس وإفريقيا الشمالية قاطبة.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أسس الموحدون الوحدة المغربية من جبال البرانس في الأندلس إلى تخوم مصر وأقاموا فيها دار الخلافة الموحدة ثم الحفصية.

هذه هي الوحدة البربرية الحققة الواقعية. وأما الوحدة التي يرمي إليها ماسينيوس واضراب م. ماسينيوس - أو على الأقل - التي كان يرمي إليها. فقد رجع من بعيد. فهي وحدة باطلة ضالة مضلة.

وبعد فما هي الوحدة البربرية في نظر ماسينيوس؟ روج الباحثون الفرنسيون في الأذهان أن البربر من الجنس السلتي أو الكلتي والسلت جنس هندي أوروبي قد سكن أوروبا الغربية في عصور متقدمة قبل الميلاد فمنه الولش سكان إنجلترا القدماء والبلج سكان بلجيكا القدماء والغاليون سكان فرنسا القدماء والايبيريون سكان اسبانيا القدماء.

وهذه النظرية التي تريد أن تجعل البربر من السلتي ترمي إلى أن تجعلهم طبعا من الغاليين. أي أنهم يتحدون جنسا مع قدماء الفرنسيين. وإذا تحدوا معهم جنسا من القديم فقد تعين أن يتحدوا مع الفرنسيين جنسا في الحاضر؛ فتلك بضاعتنا ردت إلينا؛ فالغاليون سلتي. والبربر غاليون والغاليون فرنسيون. والبربر غاليون. فالبربر فرنسيون وهكذا؛ فبواسطة قضية منطقية شكلية مركبة من كبيرين وصغيرين نصل إلى

نتيجة واحدة مقررة هي أن البربر فرنسيون من ناحية الجنس وقد بقي أن يجعلهم فرنسا فرنسيين من ناحية اللغة والثقافة وهذا أمر بسيط تكفلت به المدرسة الفرنسية التي لا عربية فيها. وبقي أن يجعلهم فرنسيين حضارة وهذا أمر تكلفت به العناية العلمية المرتبة التي ترمي إلى إسقاط القيم الإسلامية والعربية وإحلال القيم الفرنسية مكانها في الروحيات والأدبيات والماديات؛ فالمدنية العربية قديمة، والمدنية الفرنسية حديثة، الثقافة العربية قديمة والثقافة الفرنسية حديثة، والأكل العربي قديم والأكل الفرنسي حديث، فيكفي أن ننفر الناس من القديم ونحشرهم إلى الحديث حشر الأنعام ليبعدوا عن الحضارة العربية ويرتموا في أحضان الثقافة الفرنسية: وبقي أن يجعلهم فرنسيين دينا وهذا أمر تكفل به المبشرون، فهذه العمليات بسيطة في ذاتها -على الكاغد على الأقل- ولا عيب فيها إلا أنها ليست بسيطة فقط بل ساذجة أيضا، أي درويشية على أصح عبارة فكانت النتيجة معكوسة طبعاً، نعم سيدي ومعكوسة على خط مستقيم، فليس فقط لم يتفرنس البربر ولم "يتغلوا" ولم "يتسلتوا" بل زادوا عروبة على عروبتهم وإسلاما على إسلامهم، بل كان زعماء الإسلام والعروبة في الجزائر مثلا من صميم البربر أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج وعبد الحميد بن باديس الصنهاجي.

وكانت النتيجة معكوسة لأمر بسيط جدا هو أن المقدمة التي انبنت عليها النتيجة هي أيضا معكوسة فمن الطبيعي والبديهي أن تعكس النتيجة وفاقها.

فقد كان أصحاب النظرية في بساطة عقولهم وساذجة تفكيرهم واستسهال مرماهم يبنون قبة فوق حبة ويتخذون من البعوضة جملا، ويجعلون من رغائبهم واقعيات ومن أوهامهم حقائق ومن أحلامهم عالما شهوديا.

لقد مرت هذه القضية باطوار وخلفت أبطالا من الأنصار والخصوم وأسالت بحارا من الموارد واستغرقت فناطر مقنطرة من الورق وأثارت زوابع من الحماس وانتهت كذيل السمك في مهزلة مضحكة مبكية!

بدأت "القضية البربرية" في منتصف القرن الماضي يوم كانت السياسة الفرنسية المتعبد بالجزائر يتعاورها عاملان، العامل الأول نزعة الملوكية الفرنسية من نابليون الأول إلى نابليون الثالث في ايجاد "امبراطورية عربية" فقد حاول نابليون الأول إنشائها في مصر والشام، وحاولت الحكومة الملوكية الفرنسية انشاءها بالجزائر وتاليها من العنصرين البربري والعربي الملتحمين في الواقع، واما العامل الثاني فهو نزعة الإدماج أي فرنسة الجزائر والسعي إلى إدخالها في حظيرة النصرانية، وبالإخارة انتصرت النزعة الثانية لاسيما بعد حرب السبعين وانتصاب الجمهورية الثالثة فهب هانوتو يثبت ان البربر غير العرب وأن البربرية لغة قائمة بذاتها مستقلة في متن لغتها وأسرار تراكيبها ودورات دواليبها وأن لها أدبا حريبا بكل تمجيد ينبغي جمعه لبعثه وتنشيطه لتغليبه، وهبت إدارة التعليم إلى إيجاد مدارس عربية للعرب ومدارس بربرية للبربر، وهبت مقالات الصحف تمجد البربر وتنفخ في نار النعرة البربرية وتنقيص العرب ومؤسسات العرب.

وهب الباحثون المغرضون يدرسون المؤسسات البربرية وبينون دعائم حضارة بربرية ليحاولوا من ورائها إيجاد وطنية بربرية ضد العرب أولاً وضد الإسلام ثانياً. وهبت الحكومة تقسم لتسود فتؤلف المناطق البربرية على حدة والمناطق العربية على حدة. وهبت المدارس المدرسة العليا الجزائرية تؤسس شهادات اللغة والأداب البربرية. وتنشر كتب النحو ومجاميع النوادر والقصص البربرية، ولكن هذه الموجة الجارفة الطاغية لم تهز حماس البربر ولم تستفز إلا ابتسامة العرب.

وفي أوائل القرن ظهرت "القضية البربرية" بتونس أيضاً. فهب الطبيبان شانتر ونيرتولون يؤلفان تصنيفاً ضخماً جداً في مقاييس جماجم البربر وأنها مفاطحة أو مستطيلة، وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم وأطوال جسومهم مع المقارنة بين جميع ذلك وبين مقاييس جماجم الغالين وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم ومعرفة أطوالهم. فتبين بعد طول البحث وبسط أعمق النظريات - التي من شدة ظهورها الخفاء - أن الشعبين هما بحمد الله أشبه من الماء بالماء وأنهما من أرومة واحدة ما في ذلك من شك وأن العرب قد تدخلوا

بغزواتهم الوحشية ففرقوا قوائين شعبيين خلقهما الله للألفة والاتحاد. وأما الآن وقد زال سلطان العرب فلم يبق على الشعبين إلا أن يتألفا من جديد فصرنا نسمع أولادنا يكررون ملء حناجرهم في مدارسنا "أباؤنا الغالين" "كان أجدادنا يسمون في القديم الغالين وكانت بلادنا تسمى غالياً" كلنا كررنا هذه العبارات مرارا وتكرار في غير إيمان كبير مع جانب غير قليل من

الاندهاش.

وتكون في بعض المدارس معلمة فرنسية طيبة القلب زكية النفس فتري البنيات المسلمات بتقاريطن وقباقهن وهن يسردن "كان أجدادنا من الغالين وكانت بلادنا في القديم تسمى" بنفس النفس الذي يسردن به "جعجونه! جعجعونه!" فتغرورق عيناها دموعاً من الوجد وحمد الله كثيراً في السر والعلانية على أن هؤلاء البنيات هن حفيدات فرنسا يخوريكس الغالي ما في ذلك من مرأء!

واعتقد مديرو المعارف "التسعة" الذين تعاقبوا على الإدارة اعتقدوا اعتقاداً راسخاً أنهم قاموا بمهمتهم أحسن قيام لأن أبناء المدارس من التونسيين قالوا "أجدادنا الغاليون وبلادنا في القديم تسمى غالياً".

وفيما يخصني أنا (وأعوذ بالله من كلمة أنا كما ورد إذ كلمة أنا مقبلة كما قال بسكال) فقد كنت اتعجب جداً عندما كنت صغيراً من أن غالياً هي بلادنا فانا اعرف أن غالياً هي جزء من بلادنا. فلماذا هذا التعميم يا ترى؟ وغالياً الأخيرة هذه هي ناحية بتونس فيها مباقل ومروج فكانت أذهب بميعة أبي رحمة الله تعالى لأكل منها الخس والبسباس وأتساءل في ضميري الباطن وطني عقدي لماذا غالياً الصغيرة هذه قد أصبحت في مدرستنا كل الملكة التونسية. وللمدارس يرمئ في تعليمها وتعاليمها أسرار.

ودخلت الاذاعة التونسية سنة 1938 كرئيس للقسم العربي

وكان عندنا في القسم الفرنسي أحد أساتذة معهد كارنو يسمى يحي عمروش وهو قبائلي فكان مختصها بإذاعة عن الموسيقى القبائلية تنشد أخته المغني. وينشد هو المعنى. وكان في الحسبان أن هذه الإذاعة ستحدث انقلابا في ذهنية البربر فتحولهم بين عشية وضحاها إلى غاليين أو أنصاف غاليين على الأقل (وعبدكم يقنع بالربع من ذلك اذا تيسر) ولكن لم يكن من ذلك شيء حتى أن يعتبر على الأقل طرفة فنية وحنفية غنائية.

وقبيل ذلك بقليل اصدر العلامة الألماني الدكتور لاخمان دراسة علمية عن الموسيقى بالمغرب اثبت فيها ان الأنغام البربرية قد اضمحلت من هذه الربوع منذ أجيال فبقول من نأخذ ياترى؟

وقبيل الحرب الأولى بقليل زحف الايطاليون على طرابلس وسلكوا هناك أيضا "السياحة البربرية" التي ترمي في الظاهر إلى إرجاع السيادة إلى البربر وتطهير البلاد من العرب "المغتصبين" وشمر الباحثون الايطاليون عن ساعد الجد يدرسون اللهجات البربرية والآداب البربرية والعقائد البربرية والحضارات البربرية، وبثوا بذور الشقاق بين العنصرين على قاعدة فرق تسد. فلم ينجوا من ذلك طائلا بل كان زعماء المقاومة من البربر كثيرين نخص بالذكر منهم المجاهد العالم الأديب الفقيه الألعى الشيخ سليمان الباروني وناهيك.

وأسس الفرنسيون بالمغرب الأقصى "معهد البحوث العليا المغربية" وخصصوه في البحوث البربرية ونشروا لذلك

"هسبيريس" وطفقوا يصنعون عن لهجات البربر وآدابهم ونفسياتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم التصانيف المطولة وتخرجت طائفة من "المتبريرين" أي المختصين في البحوث البربرية وعاشت في الجبال مع القبائل في عقر ديارها. وكانت نتيجة ذلك ان قال لنا بعض أصدقائنا الذي كان مترجما في الجيش هناك: "...وعندما ندخل القرية النائية في أعالي الجبل البعيدة عن كل تأثير عربي نجد اسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم قد سبقتنا بدهر إلى أحقر الأكوام!"

وهذه الظاهرة القوية الدلالة لم تمنع صدور الظهير البربري المعروف الذي قام له العالم الإسلامي وقعد ولم تمنع التجربة البربرية ضد جلالة سلطان المغرب وحوادثها الاليمة لم تنزل عالقة بالآذان.

نريد أن نفهم هنا ما هو سبب اخفاق "الوحدة البربرية" كما كان يريد هـ م. سينيوس الذى رجع من بعيد؟ لذلك في نظرنا أسباب كثيرة سنحاول بيان البعض منها:

أما أولا فإن أصحاب النظرية قرورا الأمر ونقيضه فهم من جهة يقررون الإمبراطورية البربرية والوحدة البربرية والسيادة البربرية. ومن اخرى يقررون أن البربر عاجزون عن تكوين إمبراطورية وقصاراهم أن يؤسسوا جامعة صغيرة. في قرية حقيرة أي أصغر وحدة حكومية.

أما الوحدة الحكومية الكبرى التي هي الإمبراطورية فهدهم عنه عاجزون ولا تسمح به "العقلية البربرية" التي هي "عقلية

البربر

انفرادية"؟!

وفي تناقض واضح بحيث أن النظريتين تنطاحان وتبیدان أحدهما الاخرى فنخرج من الموضوع بصفر.

وأما ثانيا فإن الرومان جعلوا من البربر قياصرة مثل سبتموس سافاروس وغوردیانوس والعرب جعلوا منهم قادة فتح وخلفاء إسلام وأما الفرنسيون فلم يفسحوا في وجوه البربر المجال حتى يطمعوههم بالفكرة الإمبراطورية.

وأما ثالثا فإن الإسلام والعربية حائلان دون كل اندماج مع العناصر الخارجية.

ولا تكون "الجامعة البربرية" الآن أو غدا إلا كما كانت بالأمس، مثلما بناها بلكين وباديس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وأبي زكرياء الحفصي، أي وحدة إسلامية عربية بقيادة زعيم من البربر إذا شئت.

والرأي النهائي الذي نختم به الدراسة هو أن البربر من أهم عناصر الإسلام دينا وثقافة وفنا وسياسة وزعامة وتفكيراً.

فإمبراطورية الغد تتألف من اتحاد الدول المغربية البربرية العربية، ومن الجامعة العربية ومن الجامعة الإيرانية الطورانية الهندية، تكللها جميعاً الجامعة الإسلامية التي يترأسها خليفة منتخب، ولا مانع أن يتزعم البربر من ناحية أخرى وحدة القارة الإفريقية وما ذلك على همتهم بعزیز، والحمد لله أولاً وأخراً.